عاميّات

قد نمرّ في خلال مطالعاتنا بألفاظٍ أعجمية أو محرّفةٍ عاشت في بطون الكتب سبعة قرون أو ثمانية قرون ولا تزال تعيش في عصرنا هذا. وقد نمرّ في أثناء أحاديثنا بألفاظٍ عامية ليس لها ذكر في معجمات اللغة ، فنعجب من شيوعها ، ونحار في أمرها ، كيف شاعت هذه الألفاظ على أفواه الناس ، من أين جاءت وكيف عاشت ؟ إلاّ أنّا إذا فكّرنا بعض التفكير فقد تنكشف لنا هذه العاميّات بعض الانكشاف ، فنهتدي إلى أصلٍ فصيح لها ، قد يكون بعيداً أو قد يكون قريباً ، وعلى كل حال فقد يُمهّد لنا سبيل إلى الاجتهاد ، سواء أكنّا مصيبين في اجتهادنا أم كنّا مخطئين . من هذا النمط من الألفاظ : البقجة ، لَحَسَ ... يَخْدُقُ ... دي ، دي ..

أذكر أني من ستين سنة كنت أسمع في دمشق يقولون : بقجة الحمّام ، وبقجة العروس ، وكانوا يريدون بهذه اللفظة ، أي البقجة ، ما يجعلون فيه فُوَط الحمّام ، أو ثياب العروس ؛ والفوط ، في كتب اللغة ، ثياب تجلب من السند ، أو مآزر مخططة ، الواحدة فوطة ، وقيل : هي لغة سندية .

أمّا بقجه الحمّام فكانت المرأة تضع فيها فوطها ، تأخذها معها إلى الحمّام ، وكانت حمّامات دمشق قبل الظهر لاستحمام الرجال ، وبعد الظهر لاستحمام النساء ، وكانت النساء يوم الاستحمام يقضين نصف النهار في الحمّام ، من الظهر إلى غروب الشمس ، وأكثرهنّ كنّ يأكلن في الحمّام .

هدية مجمع اللغة العربية بالتعاون مع شبكة الألوكة
www.alukah.net
شبكة الألوكة www.alukah.net

وأمّا بقجة العروس فكانت تحتوي على ثيابها ، ومن عاش في دمشق قبل ستين سنة أو خمسين سنة كان يرى بعينيه جهاز العروس وهم يحملونه في الأسواق والحارات حتى يصلوا به إلى بيت العروس ؛ وفي جملة هذا الجهاز البقج التي كانت تشتمل على الثياب ؛ وإذا كان الجهاز فاخراً كانوا يقولون : الجهاز ثقيل ، هذا هو تعبيرهم .

والذي يهمنا في هذا المقام من نبش صورة قديمة من صور دمشق وعاداتها وتقاليدها إنما هو لفظة البقجة .

لم أظفر في القاموس المحيط بذكر البقجة ولست أدري هل ذكرت في بقية المعجمات ، وقيل : هي لفظة تركية ، ولست أبالي بهذا كلّه ، ولكنّ الذي أبالي به أن لفظة البقجة قد عاشت في لغتنا عصوراً مديدة ، ففي كتاب « مجمع الآداب في معجم الألقاب لابن الفُوطي » وردت هذه اللفظة في ترجمة غياث الدين أبي نصر محمّد بن أسعد ، فقد جاء في هذه الترجمة : وسلّم ما كان استصحبه من الهدايا والتحف ، ومن جملتها مائة بقجة تشتمل على فاخر الثياب .

لا تزال هذه اللفظة تعيش في لغة العامة ، حتّى في لغة الخاصّة ، على أن أكثر الدور قد أُنشئت فيها خزانات لحفظ الثياب وكانت الثياب تحفظ في الماضي في صناديق ، بعض الثياب فوق بعض ، لم تنسّق على الوجه الذي تنسّق عليه اليوم في الخزانات ، وأكثر الاستحمام يكون اليوم في البيوت ، فلم تبق حاجة إلى وضع الفوط في البقجة ، ثم ان أكثر المسافرين يضعون في السفر ثيابهم في عياب من جلدٍ ، بدلاً من وضعها في البقج .

إلا أنه على الرغم من قلة اللجوء إلى البقج في هذا العصر فإن لفظة البقجة ، التي شاعت في الماضي ، في القرن السابع ، لا تزال تعيش في يومنا هذا ، وأظن أنها لا تموت إلاّ في اليوم الذي لم تبق فيه حاجة إلى وضع

هدية مجمع اللغة العربية بالتعاون مع شبكة الألوكة
www.alukah.net

فوط الحمّام أو ثياب العروس أو ثياب بعض المسافرين في بقجة مطرّزة ، فان الألفاظ تعيش عادةً في اللغة ما دلّت على أشياء موجودة ، فاذا انطوت هذه الأشياء انطوت معها أسماؤها الدالّة عليها ، وسميت حينئذ هذه الألفاظ : الألفاظ التاريخية ؛ فالأسماء توضع للمسمّيات ، وتعيش ما عاشت هذه المسميات ؛ ولفظة البقجة لا تزال محظوظة في لغة العامّة وفي بعض لغة الخاصة ، أما في لغة العامّة فلا نزال نرى بعض المسافرين من أهل القرى ، حتى ومن أهل المدن إذا ركبوا السيارات الكبيرة أو الصغيرة حملوا معهم بقجهم وفيها ثيابهم ، وأمّا في لغه الخاصة فانهم يستعملون لفظة البقجة في أحاديثهم وإن كانوا يحملون في سفرهم عياباً لا بقجاً .

وإذا كانت لفظة البقجة تركية وليس لها أصل فصيح ، فان لفظة لَحَشَ عامية ، وقد يكون لها أصل فصيح على ما أظن ، فهي محرّفة ، قد تصرّفت فيها العامّة ، فبدّلت الواو لاماً ، ولحش في لغة العامة معناها رمى .

لم أجد في القاموس المحيط أصلاً لمادة لحش ، إلا أنه جاء في الأغاني ، في أخبار داود بن سلم ونسبه ما يلي : فأخذ أبو السائب الطبق ، فوَحَشَ به إلى السماء ، فوقع الفريك على رأس الحسن بن زيد ... جاء في القاموس المحيط في مادة الوحش : وَحَشَ بثوبه كوَعَدَ رمى به مخافة أن يُلحق ، كوحَّش به بالتشديد ، فلا يبعد ، ولست أجزم ، أن أصل لحش العامية إنما هو وَحَشَ ، ولكن العامّة تميل دائماً إلى التسهيل والتخفيف ، فليس الأمر من وَحَشَ ، مثل الأمر من لَحَشَ ، فالأمر من وحش : حِشْ ، ولا ريب في أن قولنا : الحش ثوبك أخفّ من قولنا : حِشْ بثوبك ؛ وعلى كل حال هذه اجتهادات في ردّ الألفاظ العامية إلى أُصولها لا أقطع بها ، ولكن الذي أقطع به إنما هو ميل العامّة إلى التسهيل والتخفيف على

هدية مجمع اللغة العربية بالتعاون مع شبكة الألوكة
www.alukah.net

نحو ما قلت ؛ والفرق في هذا المعنى بين : حِشْ بثوبك والحش ثوبك ظاهر ، فضلاً عن أن لحش أصبحت لها قوة شديدة في لغتنا العامة ، ولا سيما في أبواب المجاز ، فكثيراً ما نسمع قولهم : لحشوا فلاناً ، أي أهملوه ولم يحفلوا به ، ولحشوا القانون : أي طوي ولم يُنفّذ .

وإذا استطعنا أن نجد وجهاً لتبديل الواو لاماً في مادة : وحش ، وما هذا الوجه إلاّ التسهيل والتخفيف ، فهل نجد وجهاً لتبديل الغين خاءً في مادة : غدق ؟ إن أكثر البيوت القديمة في دمشق تحتوي على ما يسمونه القاعة ، وفي كل قاعة بحرة ، وعلى جوانبها أشكال السباع يسيل الماء من أفواهها ويصبّ في البحرة ؟ وكثيراً ما نسمع أصحاب هذه القاعات يقولون : الماء يَخْدُقُ فيها ، وهم يريدون بذلك أنه غزير ، وقد لفت نظري أحد الأصدقاء إلى هذه المادة ، وقال لي : إنك تعنى بالألفاظ العامية وردها إلى الفصيح ، أفلا تجد أن خدقَ ، أصلها غَدَقَ ، فرجعت إلى القاموس المحيط ، فلم أجد لمادة خدق أصلاً ، وإنما ذكرت فيه مادّة غدقَ .. من ذلك : غدقت العين كفرح غزرت ، وأغدق المطر واغدودق كثر قطره ؛ فهل يبعد أن يكون أصل قولنا في لغتنا العامة الماء يخدق ، أو البحرة تخدق ، يرجع إلى مادة غدقَ الماءُ أي غزر ؟ فلماذا بدّلت العامة في هذه المادة الغين خاءً ، والحرفان متشابهان في النطق ، فليس أحدهما أسهل ولا أخفّ من الآخر ؟ إني لا أرى باباً للاجتهاد في هذا الوجه ، ولكن الذي أراه أن هذا الفعل المضارع يخدق ، إذا كان يذكرني من جهة الفعل المضارع يغدق ، فانه من جهة ثانية يذكرني حياة في قاعات دمشق القديمة لم يبق لها أثر في عمراننا الحديث ،

هدية مجمع اللغة العربية بالتعاون مع شبكة الألوكة
www.alukah.net

فقد كانت تلك القاعات اللطيفة تقينا لفحة الرمضاء في الصيف ، فنقيل في ظلالها في شدّة الحرّ ، ونغرق في أحلام تكاد تشبه أحلام ألف ليلة وليلة ، ولا ننسى ما كنا نصفّ على جوانب بحرات تلك القاعات من فواكه دمشق على اختلاف أنواعها ، مثل « االدراقن الزهري » و « الدراقن العتمي » و « الإجّاص العثماني » و « العنب البيتموني » وقد انقرض بعض تلك الفواكه ، فأين القاعات في عمراننا الحديث ؟ وأين بحراتها التي « يخدق » الماء فيها ؟ وأين ظلالها الظليلة ؟ وأين أحلام الذهن تحت سقوفها ؟ أين تلك الحياة الهادئة ، الناعمة ، الليّنة ؟ أفرأينا ما توحي الينا اللغة ؟ أفرأينا ما نجد في تضاعيف عاميّاتنا في بعض الأحيان من ذكريات الحياة .

وإذا ختمت هذا المقال فاني أختمه بمادة غريبة تذكرنا طوراً من أطوار الحياة في بلدنا . إذا كان للناس لغة يتفاهمون بها فان للحيوان في بعض الأوقات لغة يفهمها ، فيسير أو يقف بها ، أفلا نذكر ما كنّا نسمعه في دمشق من سنين بعيدة وهم يجرّون العربات على البغال ؟ أفلا نذكر : دِيْ ! دِيْ ! وهي اللفظة التي كانوا يسوقون بها البغال ؛ والغريب أن هذه المادة فصيحة فقد جاءت في القاموس المحيط وفسّرت على هذا الوجه : دَيْ دَيْ ، ما كان للناس حُداء ، فضرب أعرابي غلامه وعضّ أصابعه فمشى وهو يقول : دَيْ دَيْ ، أراد : يا يَدَيْ ، فسارت الإبل على صوته ، فقال له : الزمه ، وخلع عليه ، فهذا أصل الحداء .

يتبيّن لنا من هذا أن لفظة : دَيْ دَيْ ، فصيحة ، وردت في معجمات اللغة ، إلاّ أن العامّة تصرّفت فيها تصرفاً يسيراً ، فكسرت الدال بدلاً

هدية مجمع اللغة العربية بالتعاون مع شبكة الألوكة
www.alukah.net

من فتحها وقالت : دِيْ ، دِيْ ؛ إلاّ أن سماعنا لهذه المادة في أيامنا أصبح قليلاً ، والسبب في ذلك انتقال الحياة من طورٍ إلى طورٍ ، فالعربات أصبحت قليلةً ، وكذلك البغال التي كانت تجرّها . والبضائع تحمل اليوم على السيارات الكبيرة بدلاً من حملها على العربات التي تجرّها البغال ، فقد قامت الآلة مقام الحيوان ، وهي لا تساق بقولنا دِي ، دِي ، وإنما تساق بما نسميه البنزين ، فاستراح الإنسان من سوق البغال ، واستراحت البغال من سياط الإنسان !

شفيق جبري

هدية مجمع اللغة العربية بالتعاون مع شبكة الألوكة
www.alukah.net
شبكة الألوكة www.alukah.net